المنهاج التربوي النبوي:
خصائصه ووسائله

د. عدنان لخليفي
دكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس بالرباط
المغرب

مقدمة

يكتسي البحث في موضوع المناهج التربوية أهميته الموضوعية في سياق التطلع إلى منهاج تربوي شامل ومتكامل يساهم في تنمية المجتمع المسلم ويحقق الرقي له والقيام بدوره الطبيعي بين الأمم، ويلبي حاجاته المتزايدة، في ظل ما يعرفه العالم اليوم من ثورة على مستوى المناهج التربوية، والتي لم تحقق إنسانية الإنسان الحقيقية، بل ظل أثرها محدودا في جلب بعض المصالح الذاتية للإنسان، وظلت هذه المناهج تتراوح بين انسياق كامل وراء شهوات الإنسان وغرائزه وبين طموحات مثالية لا علاقة لها بالواقع، مما أدى إلى إفراز عدد كبير من الاختلالات التربوية والسلوكية، فبين انحلال مطلق وتفسخ كامل في الأخلاق وميوعة مركبة أصابت الفكر وعميت بها الأبصار، وبين إغراق في المثاليات الافتراضية وغلو في العقائد وتشدد في الممارسات. وبين من يدعو إلى تقديس الروح ومن يدعو إلى جعل العقل مصدرا وموجها ومن يدعو إلى حرية الجسد وانسلاخه من الضوابط.

فبين هؤلاء وأولئك، وانطلاقا من تقريرنا لقاعدة أن آخر هذه الأمة لن يصلح إلا بما صلح به أولها، كان لزاما علينا أن نتلمس معالم لمنهاج أصيل في مصادره ومنطلقاته، وقادر على تحديد الحياة العلمية والعملية، وتغيير ما ران على هذه الأمة من مفاهيم غربية وشرقية، ليغير الله ما بها، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم مربي الأمة وقدوتها في سائر ميادين الحياة، والأصل التطبيقي الأول للتصور والمنهاج الإسلامي، فإنه كان لزاما علينا أن نستقرئ ممارسته صلى الله عليه وسلم التربوية، التي مكنت من الوصول إلى أعلى النتائج التربوية، فغيرت الأفراد والمجتمعات، في انسجام متكامل مع منظومة التوحيد وقوانين الكون، ونحاول أن نستنبط منها أهم الخصائص التي ضبطت منهجه التربوي وأهم وسائله التربوية.

وبناء على ما سبق، سينطلق البحث محاولا الإجابة على مجموعة تساؤلات، ألخصها في إشكالية جوهرية تتمثل في ماهية الخصائص التي شكلت معالم المنهج التربوي النبوي، وكذا أهم الوسائل التي انتهجها صلى الله عليه وسلم في عمليته التربوية.

وسأعتمد المنهج الاستقرائي لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وممارسته التربوية مستنبطا من خلالها بعض الخصائص العامة لمنهجه التربوي ومستدلا على بعض الوسائل المنتهجة فيه.

وسيأتي البحث في مبحثين، الأول يهتم بدراسة الخصائص المنهاج التربوي النبوي، بينما المبحث الثاني سيركز على بعض وسائل هذا المنهاج البيداغوجية والمؤسساتية.

المبحث الأول: خصائص المنهاج التربوي النبوي

المطلب الأول: تعريف المصطلحات وضبطها

أولا: مفهوم مصطلح المنهاج

في اللغة يقال المنهج والمنهاج والنهج بمعنى الطريق الواضح، واستنهج الطريق صار نهجا وأنهج فلان سبيل فلان أي سلك مسلكه[1]، ونهج لي الأمر أوضحه وهو مستقيم المنهج[2]. وفي لسان العرب أنهج الطريق وضح واستبان وصار نهجا واضحا بينا. من هذا المنطلق يمكن القول إن الألفاظ المركبة من مادة (ن.هـ.ج)، كالنهج والمنهج والمنهاج والمنهجية والمنهاجية، ترد في اللغة بمعنى واحد، وتشترك في الإشارة إلى الطريق المستقيم الواضح، الموصل إلى الغاية بسهولة ويسر، وهي صفات تضفي على المنهج طابع الدقة والوثوق.

وفي القرآن والحديث، لم يرد في القرآن لفظ المنهج، وإنما ورد لفظ المنهاج بمعنى يوافقه في النتيجة، وذلك في قوله: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾[3] أي طريقة واضحة في الدين لا لبس فيها ولا غموض. وفي الحديث قول العباس: " لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تركنا على طريقة ناهجة" أي طريقة واضحة.

في مجال البحث العلمي: المنهج هو نسق من القواعد، والضوابط التي تركب البحث العلمي وتنظمه[4]. وكما عرفه الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه مناهج البحث العلمي بأنه الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة.

في مجال علوم التربية: إن المهتمين بحقل التربية يختلفون فيما بينهم، كل حسب مدرسته الفكرية التربوية، أو حسب اتجاهاتهم الدينية، أو القومية، أو المعرفية، وكذا بسبب تدفق الحاجات والتحديات التي يراد من المنهج تلبيتها واستيعابها. فهناك من يرى أن المنهج خطة تربوية تتضمن الأهداف العامة والخاصة، والمحتوى والنشاطات التعليمية، والتقويم. فهو عندهم خطة تربية للمعلمين. وهناك من يرى في المنهج بأنه ميدان دراسة تتضمن سلسلة من المواد الدراسية التي لا يجري الاهتمام بها، وطرق المعرفة والممارسة المتبعة. فيما يرى اتجاه آخر بأنه النظام الذي يحدد القرارات ويبلورها حول بناء المنهج وتنفيذه[5].

كما أن هناك من يعرفه على أنه "تفاعل دائم ونشط بين البشر وبين المعلومات ووسائل تعليمية، وطرق تدريس، وتجهيزات مادية من جهة أخرى. فله مدخلاته (التلاميذ والمواد الدراسية). وله عمليات (طرق التدريس)، وله مخرجاته (معارف ومهارات متعلمة).

أما في التربية الإسلامية فإن الاستعمالات المختلفة لمصطلح المنهاج تنطلق من الإشارة الصريحة له في القرآن الكريم عند قوله تعالى "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا أي سبيلا واضحا"، فيمكن القول أن المنهج في ميدان التربية الإسلامية هو الطريقة الواضحة التي وضعها الشارع فيما يخص الأهداف والوسائل اللازمة لتربية الإنسان المسلم في شتى مجالات الحياة. أو بتعبير الدكتور الكيلاني: مجموع المسارات التي تتألف منها ميادين الحياة المختلفة في كل طور وعصر، وما على هذه المسارات من منارات أقامها الوحي لتبين الحلال والحرام أو النافع والضار أو اليسر والعسر[6].

ثانيا: التربية النبوية كمصطلح علمي

1 . تعريف التربية:

تدل كلمة "تربية "على معاني النمو والزيادة، يقول الله تعالى":**وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله**"[7]، أي ليزيد في أموال الناس فإنه لا يزيد عند الله. ويقول الله تعالى" **يمحق الله الربا ويربي الصدقات**"[8]، أي ينمي الصدقات ويزيدها بمضاعفة أجرها الحسنة

بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف كما ورد في الحديث الصحيح. وأما "ربّى "بالتضعيف فيدل على التدرج والتعهّد المستمر. إذا التربية بمدلولها اللغوي تعني: تعهد الطفل بالرعاية والتغذية المادية والمعنوية بما ينميه ويؤدبه حتى يشب. وبكل ما من شأنه أن يحقق نموه في كل مجالات النمو، وقد ورد ذكر التربية بهذا المعنى في القرآن الكريم؛ يقول الله تعالى على لسان فرعون مخاطبا موسى عليه السلام " **ألَم نربّك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين**" [9]. ويقول الله تعالى أيضاً" :وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيرا" [10].

التعريف الاصطلاحي: اختلفت تعاريف التربية باختلاف المقاربات المعتمدة في النظر إليها، حيث اعتبرها أصحاب المقاربة المعجمية الاشتقاقية أنها: "مجموع الوسائل التي بواسطتها نوجه نمو وتكوين الكائن الإنساني، وكذا النتائج المحصلة بواسطة هذه الوسائل[11]".

فهذا التعريف يبين الطابع الإشكالي المعقد للتربية، حيث أنها عملية من ناحية ونتيجة من ناحية أخرى، فالمقاربة الاشتقاقية هذه تحدد لنا هنا التربية كغذاء مادي (طعام، تمرينات رياضية) ومعنوي (معرفي أخلاقي) يقود الفرد إلى السمو والنمو، أي "غذاء" ينمي.

وأما أصحاب مقاربة الاتجاه الفردي فإن تعريفهم للتربية يرتكز على أهمية الفرد، فغاية التربية أساسا هي خدمة الفرد واهتماماته. وهذا ما بينه هاربارت Herbart في تعريفه للتربية حين يرى أن هدفها هو "تكوين الفرد لذاته بأن نثير لديه تعددية الاهتمامات" [12].

أما الاتجاه الاجتماعي فيعتبرون التربية مرتبطا بالمجتمع وخدمته، بحيث يعرفونها: " العملية التي تمارسها الأجيال الراشدة على الأجيال التي لم تنضج بعد النضج اللازم للحياة الاجتماعية". أما موضوعها فيحدده في أنه " إثارة عدد من الحالات الجسمية والفكرية والأخلاقية التي يتطلبها منه المجتمع السياسي في مجمله، والوسط الاجتماعي الذي يهيأ له بوجه خاص"[13].

من إيجابيات هذا التعريف الواقعي ربطه لتربية الفرد بالمجتمع، سواء في بعده العام السياسي، أوفي بعده الخاص المرتبط بالجماعة التي ينتمي إليها الفرد.

أما في التربية الإسلامية، فيعرفها الدكتور ماجد الكيلاني بأنها تعني: المعرفة زائد التطبيق، أي هي "إعداد الإنسان المسلم لإنتاج معارف متسمة بالأصالة والمعاصرة في ميادين الحياة المختلفة ثم إعداده ليحسن توظيف هذه المعارف في حياة الأفراد والجماعات في ضوء علاقاته بالخالق والكون والممارسات والحياة والآخرة"[14].

أوهي بتعبير الدكتور فريد الأنصاري "تعهد الفرد المسلم بالتكوين المنتظم بما يرقيه في مراتب التدين فهما وممارسة"[15].

ويقصد بالتربية النبوية بها مجموع تصرفاته وتوجيهاته صلى الله عليه وسلم بالاستناد إلى الوحي في إعداد وتعهد الفرد المسلم للارتقاء به في معرفة مراد الله تعالى منه في الحياة ونقل هذه المعرفة إلى ممارسة في علاقته بخالقه ومحيطه ونفسه بما يصلحه في دنياه وينجيه في آخرته.

ومن هنا يمكن أن نستشف أن تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم باعتباره نبيا ومعلما وموجها هي في جوهرها تختزل معنى التربية في مختلف أبعادها الفردية والجماعية، وهذا ما يعبر عنه قوله تعالى: "**هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**". فعملية التعليم والتلاوة والتزكية هي وظائف المربي ومناهجه العامة التي يسلكها في مختلف أطوار العملية التربوية.

وخلاصة، فإن مقصودنا بالمنهاج التربوي النبوي هو النسق[16] العام والمبادئ الكلية والطريقة الواضحة التي انتهجها النبي صلى الله عليه وسلم والتي ضبطت تصرفاته وتوجيهاته في العملية التربوية.

المطلب الثاني: خصائص المنهاج التربوي النبوي

أولا: الشمول في التربية النبوية

إن القول بالشمولية كخاصية للمنهج التربوي النبوي، ناتج عن كون هذه الخاصية منبثقة من الخصائص العامة للدين الإسلامي، حيث أن أحكامه وتشريعاته أحاطت بكل مجالات حياة الفرد والجماعة واستوعبت الزمان كله والحياة كلها وكيان الإنسان كله.

فتربية النبي صلى الله عليه وسلم التي اهتمت بالجانب الروحي والمعنوي في الإنسان هي نفسها التي اهتمت بالجانب المادي والمحسوس عنده، وتربيته التي خاطبت العقل هي نفسها التي خاطبت القلب والجسد، وتربيته التي هدفت إلى تحقيق مصالح الإنسان في الدنيا هي نفسها التي هدفت إلى تحقيق مصالحه الدينية، وتربيته صلى الله عليه وسلم التي طمحت إلى الارتقاء في علاقة الإنسان بربه تعالى هي نفسها التربية التي طمحت إلى الارتقاء بعلاقة الإنسان بنفسه ومحيطه.

ومن هنا يمكن أن نقف على مظاهر الشمول في المنهج التربوي النبوي من خلال:

1. الشمول في الأهداف المتوخاة من العملية التربوية،

إن من أبرز ما تعانيه التربية قديما وحديثا هوما تعلق بمسألة الأهداف التربوية، ونقصد بالأهداف: تلك التغييرات التي يراد حصولها في السلوك، فلكل عملية تربوية مقاصد هادفة يرجى تحققها. وتظهر أهمية الأهداف في كونها الفلسفة العامة التي تحدد الوسائل والأدوات والمناهج المتبعة في العملية التربوية.

وينبغي لهذه الأهداف أن تكون متميزة بمجموعة من الصفات الجوهرية أهمها: "أن تكون شاملة متكاملة في ضوء العلاقات التي تحدد نشأة الإنسان ومصيره وعلاقاتها بالكون والإنسان والحياة من حوله"[17].

والمنهج التربوي النبوي تميز عن غيره من المناهج التربوية الوضعية بصفة الشمول في أهدافه ومقاصده، حيث تعدى مسألة قصور هدف التربية في تحقيق المصالح الذاتية للإنسان إلى تربية الفرد الصالح المصلح في ذاته والمساهم في إخراج أمة الشهود يقول تعالى " **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس**" وقوله تعالى " **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ". وتجاوز مسألة حصر هدف التربية تحقيق مصالح مادية محدودة زمنا ومكانا إلى تربية الفرد على تحقيق المصالح المادية والمعنوية . والتي هي روح المادة . المتسعة لأفق الدنيا والآخرة والمتعدية إلى سائر مجالات تحرك الإنسان في الحياة.

2. الشمول في مخاطبة جميع مكونات الإنسان باعتباره فردا ثم باعتباره عضوا في المجتمع،

إن استقراءنا لمختلف التصرفات والتوجيهات النبوية في تربية أفراد الأمة يجعلنا نقف أمام ملاحظة هامة وهي مراعاته صلى الله عليه وسلم لحاجات الإنسان ومتطلباته الفكرية والروحية والجسدية باعتباره فردا مستقلا بذاته وكلك باعتباره فردا وسط جماعة يتفاعل معها ويعيش في داخلها. لذلك وجدنا توجيهاته صلى الله عليه وسلم تعمل على تنمية هذه المتطلبات مجتمعة وإشباع احتياجاتها بما يصلحها في دنياها ودينها ويرقيها في مدارج الكمال.

ومن تم شملت التربية النبوية جميع المداخل التربوية في الإنسان ويمكن أن نحددها في:

أ . التربية العقدية:

وهي تربية الفرد على اليقينيات المطلقة وربطه بالأصول الكبرى وتوجيه سلوكه على أساس القيم والمبادئ التي تستمد من الإيمان الصحيح بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره[18] وهذا النوع من التربية هو حجر الزاوية في العملية التربوية في التصور الإسلامي والمهمة الأولى للأنبياء صلوات الله عليهم جميعا وغالب توجيه النبي صلى الله عليه وسلم كان يصب في ترسيخ المعاني الكبرى الضابطة لحياة الفرد فكرا وممارسة.

ومن أمثلة توجيهاته التربوية صلى الله عليه وسلم في هذا الباب ما رواه ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال:" يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف"[19].

فهذا الحديث دل على عنايته صلى الله عليه وسلم بترسيخ معاني الاستعانة والنفع والضر والتوكل على الله تعالى والقضاء والقدر.

ب . التربية السلوكية:

ونقصد بها تربية الفرد على ترجمة اعتقاده ومبادئه الكلية إلى ممارسات ظاهرة في حياته الدينية والدنيوية، مما يكون له أثر على نفسه ومحيطه. لقد عمل النبي صلى الله عليه وسلم على تربية أمته على السلوكيات النافعة في شتى مجالات الحياة، والتي كونت لنا فيما بعد منظومة الحضارة الإسلامية أو بتعبير آخر أوجدت لنا تميز الإنسان المسلم والمجتمع الإسلامي.

وهذه السلوكيات شملت العبادات والمعاملات والأخلاق والآداب العامة في أساسياتها وفي جزئياتها وتفاصيلها، وذلك في ارتباط راسخ بالمقصد الأول والأصل الأكبر وهو ربط الحياة في كلياتها وجزئياتها بالله تعالى مصداقا لقوله عز وجل " **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين**" وتحقيقا لمراده "**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**"[20].

ولقد سلك النبي صلى الله عليه وسلم في ترسيخ ذلك مختلف الوسائل **من تحفيز** كقوله صلى الله عليه وسلم محفزا على الذهاب للمسجد كممارسة يومية عند المسلم "من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلا كلما غدا أو راح"[21]. وكذا **تخويف** من ترك الصلاة في المسجد كقوله " والذي نفسي بيده، لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلا فيؤم الناس، ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم"[22]. وغيرها من الوسائل التربوية الأخرى.

ج . التربية الاجتماعية:

وهي العملية التي بواسطتها يتعلم الفرد طرق مجتمع ما، أو جماعة حتى يتمكن من العيش داخلها، أوهي بعبارة أخرى "عملية تشكيل السلوك الاجتماعي للفرد، واستدخال ثقافة المجتمع في بناء الشخصية"[23]، وتربي الفرد على أن يكون صالحا في مجتمعه يعرف واجباته وحقوقه.

ومن الأمثلة التي توضح عناية النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الجانب من التربية أحاديث المعاملات والواجبات الدينية والحقوق الأخوية التي تضبط العلاقات بين المسلمين وتبنيها على أساس المودة والتراحم، وكذلك ما ينظم علاقة المسلم بأسرته ويضبط العلاقة داخل البيت باعتباره الوحدة الأصغر في المجتمع. فمن هذه الأحاديث، حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حق المسلم على المسلم ست: قيل: وما هنّ يا رسول الله؟ قال: إذا لقيته فسلّم عليه. وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشَمِّته. وإذا مرض فعُدْه، وإذا مات فاتْبَعه" رواه مسلم.

د . التربية الجمالية:

ويقصد به "تربية الفرد على إيجاد الحس الجمالي بشتى صوره الشكلية أو الصوتية والتدريب على ترقية هذا الحس"[24]، حتى يشعر الإنسان بما يحيط به من جمال الكون، وجمال الحياة الإنسانية، وجماله في نفسه، في خلقه وخلقه، وأفعاله وأقواله، ومن ثم يستفيد من هذا الإحساس بالجمال بما يساعده على أن يصبغ حياته كلها به، فيحاكه في شكله وملبسه ومسكنه وقوله وفعله، ويستطيع من خلاله إدراك القدرة الإلهية في بديع خلقه.

هـ . التربية الجسمية:

لقد ربى النبي صلى الله عليه وسلم أمته على ضرورة العناية بالبدن كنعمة أنعم الله بها على الإنسان، فجاءت توجيهاته صلى الله عليه وسلم تنبه إلى ضرورة المحافظة على البدن وكل ما يصلحه والابتعاد عن كل ما من شأنه أن يضره ويؤذيه، فالتربية الجسمية أو البدنية أو الجسدية هي عملية يقوم الفرد أو من يرعاه . خلالها بنشاط جسمي منظم بهدف تنمية قدرات الجسم المختلفة وزيادة كفاءته الحركية. فهي تهدف إلى المحافظة على الجسم قويا نشيطا وهذا ينسجم مع عموم توجيهه صلى الله عليه وسلم "المؤمن القوي خير وأفضل وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف"[25]. وكذلك فعله صلى الله عليه وسلم في مسابقة عائشة ومصارعة ركانة ودعوته إلى الابتعاد عن كل ما يضعف الجسم كما في قوله في الدعاء المشهور " اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل"[26].

ثانيا: الواقعية في المنهج التربوي النبوي

ونقصد بها **أولا** أن المنهج النبوي في التربية ينطلق من مراعاته للإنسان وقدراته وطاقاته، فهو منهج لا يطالب الإنسان بما لا يطيقه، ولا يربيه على المثاليات العقلية التي لا وجود لها في الواقع، وإنما هو يتعامل مع الحقائق الموضوعية، ذات الوجود المستيقن والأثر الواقعي الإيجابي. يتعامل مع الإنسان الواقعي المركب من لحم ودم وأعصاب، وعقل وروح، الإنسان ذي النوازع والأشواق، والرغائب والضرورات. الإنسان الذي يأكل ويشرب ويحب ويكره ويرجو ويخاف ويستيقظ وينام ويؤثر ويتأثر[27]. وفي نفس الوقت، فواقعيته هي واقعية مثالية،[28] أي أنها تهدف إلى الارتقاء بالإنسان والمجتمع إلى أرفع مستوى وأكمل نموذج. ومن ثم فهو منهج قابل للتطبيق في واقع الناس.

ومما يشير إلى هذا المعنى ويدل عليه حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال :جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا، فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: " أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي[29] .

فهذا الحديث تضمن إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم كان يربي الصحابة رضوان الله عليهم على ما يطيقون في أمور العبادة، فمنهجه ميسر للخلق جميعا هين ولين مع الفطرة يوجهها ويقومها حين تميل ولكنه لا يكسرها ولا يجهدها كذلك[30].

ثم نقصد **ثانيا** بواقعية المنهج النبوي في التربية، أنه صلى الله عليه وسلم راعى أحوال المتربين (المخاطبين) في اختلافاتهم النفسية ومكانتهم الاجتماعية وطاقاتهم المختلفة.

فحينما سأله الأعرابي قائلا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِمَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ، فَقَالَ: " افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ صَلَوَاتٍ خَمْسًا "، قَالَ: هَلْ قَبْلَهُنَّ أَو بَعْدَهُنَّ؟ قَالَ: افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ صَلَوَاتٍ خَمْسًا، قَالَهَا ثَلَاثًا، قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا أَزِيدُ فِيهِنَّ شَيْئًا، وَلَا أُنْقِصُ مِنْهُنَّ شَيْئًا، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ[31]. فأخبر بدخوله الجنة إن صدق الله فيما فرضه عليه فقط، أما حينما سأله معاذ بن جبل عن عمل يدخله الجنة ويباعده عن النار، قَالَ: " لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ " ثُمَّ قَالَ: " أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، قَالَ ثُمَّ تَلَا: تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ، ثُمَّ قَالَ: " أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ ؟ " قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: " رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ "، ثُمَّ قَالَ: " أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ " قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: "كُفَّ عَلَيْكَ هَذَ[32] ".

ونلاحظ هنا كيف أنه صلى الله عليه وسلم لما علم من طاقة معاذ واستعداداته . وهو أعلم الأمة بالحلال والحرام . وجهه إلى ما يطيقه ويلائمه وجعل النوافل له والفرائض سببا لدخوله الجنة، في حين أن الأعرابي اكتفى معه بالفرائض وجعلها سببا لدخول الجنة، فطاقة الأعرابي واستعداداه ليس هو استعداد معاذ.

وكما أنه راعى في تربيته اختلافات الطاقات، فقد راعى كذلك المكانة الاجتماعية للأفراد، حيث قال في سعد بن معاذ رضي الله عنه قوموا لسيدكم لعلمه بمكانته بين قومه، وكذلك تشريفه لأبي سفيان رضي الله عنه حينما جعل بيته مأمنا يوم فتح مكة وهو سيد قريش يومئذ، وكذلك إعطاؤه راية لخالد بن الوليد رضي الله عنه يوم مؤتة لعلمه بقدرته في القيادة وغير هذه المواقف كثير في سيرته صلى الله عليه وسلم مما يدل على واقعيته صلى الله عليه وسلم في تربية أمته.

ثالثا: الربانية مقصدا ومنطلقا ووسيلة

يعتبر المنهج التربوي النبوي منهجا ربانيا وهذه الخاصية هي مصدر الخصائص الأخرى التي تستمد منها تميزها وقوتها. فهو منهج يجعل الوحي الذي هومن عند الله تعالى مصدرا للعملية التربوية ويستقي منها وسائله التربوية العامة، فالنبي صلى الله عليه وسلم كمربي جعل الله تعالى وظيفته التربوية مبينة في قوله " **هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة** " فهو هنا في مقام المربي المعلم.

وتتضمن هذه الآية وإشارة صريحة إلى أن منهج النبي صلى الله عليه وسلم هو وحي من الله تعالى لذلك قال " هو الذي بعث"، أي أن لله تعالى المصدرية والمرجعية، وأعقبت هذه الآية قوله تعالى ممتنا على الناس "**ذلك فضل الله يوتيه من يشاء والله ذوا لفضل العظيم**"، فهذا المنهج وهذا النبي صلى الله عليه وسلم بجميع أدواره هو منة وفضل تفضل الله تعالى به على عباده.

فمقصودنا بالربانية مقصدا ومنطلقا أن المنهج التربوي النبوي يجعل غاية الإنسان الكبرى، الارتقاء في حسن الصلة بالله تبارك وتعالى الذي استخلفه على الأرض واستعمره فيها، والحصول على مرضاته، وبالتالي هي غاية الإنسان، ووجهة الإنسان، ومنتهى أمله، وسعيه، وكدحه في الحياة[33].

أما اعتبارنا للربانية في الوسائل التربوية في المنهج النبوي فنستشفها كذلك من قوله تعالى: "**يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة**"، والآيات هي آيات القرآن والقرآن يقدم للمتربي المسلم الأصول المعرفية الصائبة التي توجه منطلقات المعرفة ومساراتها وتطبيقاتها. وهي أصول يقينية صادقة لأنها صادرة من خالق النشأة والحياة والمصير، وينحصر دور الرسول المربي في تلاوتها كما أوحيت وتلاوة النبي صلى الله عليه وسلم هي نوعان تلاوة بالقول وتلاوة بالفعل والتطبيق، فلذلك كان صلى الله عليه وسلم قرآنا يمشي على الأرض.

ثم إن تلاوة الآيات ترشد المتربي المسلم إلى كيفية الانتفاع بثمرات المعرفة انتفاعا روحيا وعقليا وجسديا على المستوى الفردي والجماعي. وبذلك تسهم آيات القرآن في بناء الحياة ونموها وفق منهج الله تعالى الذي يصلح الدنيا والآخرة.

لقد عمل النبي صلى الله عليه وسلم على التزكية في أبعادها كلها، فراعى في العملية التربوية **تزكية النفس** فهي الوجود الحي للإنسان كله، والنفس هنا قسمان قسم معنوي يشار به إلى القلب وقسم مادي يقصد به الجسد[34]، **وتزكية القدرات العقلية** وقد بلغ الصحابة رضوان الله عليهم الذين زكاهم النبي صلى الله عليه وسلم أرقى درجات الكمال العقلي والعقل الكامل كما عرفه ابن تيمية "هو الذي يعرف الخير ولا يريد الشر"[35]. و**تزكية البيئة العامة** والمقصود بها البيئة الطبيعية وما يجري فيها نشاطات إنسانية تحتوي على مجموعة الاعتقادات والتقاليد والأعراف والنظم والسياسات وشبكة العلاقات الاجتماعية. فللبيئة المحيطة بالإنسان أثر في صلاح سلوكه أو فساده، ثم أن الإنسان يتجه ضرورة إلى المحيط لإشباع حاجاته المختلفة. وبالتالي فالبيئة العامة تشمل البيئة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والطبيعية والثقافية للفرد. ومن ثم جاء حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تزكية البيئة في مدلولها العام.

وأخيرا فمسألة تعليم الكتاب والحكمة، هي من أهم العمليات التربوية التي قام بها النبي صلى الله عليه وسلم ونقصد بالكتاب القرآن الكريم الذي هو منبع كل العلوم والمعارف والسلوكيات الحسنة، فالرسول المربي علم الصحابة الكتاب ليستخرجوا منه المعارف والعلوم التي تفرق بين الحق والباطل، وتشفي النفوس وتهدي إلى ما يصلح حياة الإنسان الدنيوية والدينية.

أما الحكمة فهي السنة وهي الصواب في القول والعمل والتقدير، وأشار الرازي في تفسيره أن الحكمة قسمان: حكمة نظرية وحكمة عملية، ولا بد من اجتماعهما في السلوك الكامل، ثم خلص للقول بأنها كل عمل حسن وصالح، وما يهمنا في هذا البحث هو قوله أي الرازي " الحكمة من الله تعالى خلق ما فيه منفعة العباد ومصلحتهم في الحال والمآل" فهي من عند الله تعالى.

وخلاصة فالمنهج التربوي النبوي منهج رباني في أصوله الكبرى ومصادره فهو الضابط لتصرفات النبوية في العملية التربوية وكذلك في وسائله التفصيلية الجزئية.

المبحث الثاني: وسائل المنهاج التربوي النبوي

ونقصد بالوسائل هنا مجموع الوسائل والقنوات التي استثمرها النبي صلى الله عليه وسلم في تنزيل منظومة العقائد والمبادئ إلى مجال الممارسة والواقع. فاستقراؤنا لتصرفات النبي صلى الله عليه وسلم كمربي يبين لنا تنوع هذه الوسائل وتعددها، وسنكتفي في بحثنا هذا على الوقوف على بعض الوسائل التربوية التي لا زال لها أثرها في تربية الفرد والمجتمع ولازالت تحتاج منا إلى مزيد من الدراسة والتأصيل، وقسمت هذه الوسائل إلى قسمين الوسائل البيداغوجية والوسائل المؤسساتية.

- **المطلب الأول: الوسائل البيداغوجية**

ويقصد بالوسائل البيداغوجية في ميدان التربية طريقة المشروع أو مجموعة الممارسات الواضحة، ذات الاستعمالات المضبوطة والتي ترتبط بأهداف محددة وتنطلق من أسسها المرجعية التي تستند عليها. وفي مجال التعليم تعني البيداغوجيا مجموع طرق التدريس أوهي علم وفن التعليم.

فماهي أهم الطرق البيداغوجية التي تميز بها المنهج النبوي في التربية؟

أولا: التربية بالمشاركة

يتحدث علماء التربية عن طرق جديدة ووسائل حديثة في العملية التربوية، ومن هذه الوسائل الحديثة التربية بالمشاركة أو التكليف، وهي عملية تنتقل بالمتربي من طريقة تلقينه للمبادئ والقيم المراد إيصالها، إلى جعله مشاركا في صناعة هذه القيم والمبادئ، عبر تحسيسه بانتمائه لها. وهذه الوسيلة تجعل المتربي أكثر ارتباطا وحماسة لترسيخ معاني هذه القيم في ذهنه وأكثر ممارسة لها في سلوكياته.

وإن كان علماء التربية المحدثين هم من تكلموا عن هذه الوسيلة التربوية، إلا أن الملاحظ لتصرفات النبي صلى الله عليه وسلم مربيا يجد أنه انتهجها في تربيته لصحابته رضوان الله عليهم لغرس مجموعة من المبادئ والقيم، وكذلك في سائر شؤون الحياة التدبيرية للمجتمع المسلم.

إن ممارسة النبي صلى الله عليه وسلم لهذا النهج . في إشراك المتربين . لم تقتصر على جانب ضيق من التطبيق، بل شملت كبار الأمور قبل صغارها، ومنها إشراكه صلى الله عليه وسلم لهم **في حمل هم تبليغ الدعوة**، وهي من كبريات الأمور بل هي رأس الأمر كله، ومن ثم كانت توجيهاته صلى الله عليه وسلم تحسس بمعاني الانتماء للدين، وأن عموم المسلمين هم أهله وحملته والمنافحين عنه والداعين له، فانتقل بهم صلى الله عليه وسلم من موقع المدعوين إلى موقع الداعين، ويمكن أن نستحضر هنا نموذجا من الصحابة كانت لمشاركته الأثر الكبير في نشر الرسالة، النموذج الأول أبوبكر الصديق رضي الله عنه، فأول ما فاتح رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر بالدعوة قال له: "إني رسول الله ونبيه، بعثني لأدعوك إلى الله وحده لا شريك له، ولا تعبد غيره، والموالاة على طاعته"[36]، فخطاب النبي صلى الله عليه وسلم كان مركزا وموجها

مباشرة من الوهلة الأولى إلى غرس الانتماء لهذا الدين والدعوة له ونلمس ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم (والموالاة على طاعته). فمن هذه اللحظة أسلم أبوبكر وانطلق في مسيرة الدعوة إلى الله تعالى قياما منه بواجب الموالاة والنصرة، فكان "الصديق كثير الحركة للدعوة الجديدة، أينما تحرك أثر وحقق مكاسب عظيمة للإسلام"[37]، ويكفيه فخرا أن يكون سببا في إسلام خمسة من المبشرين بالجنة،[38] لقد عاش أبو بكر مشاركا في التبليغ وفي الجهاد بالنفس والمال والأهل وفي تحمل الأذى والمشاق إلى أن توفاه الله تعالى فهو ثمرة من ثمار التربية النبوية.

ومنها إشراكهم في الاختيارات السياسية والعسكرية، والأمثلة في هذا الباب كثيرة ومنها إشراكهم في اختيار مواقع الحروب واستقرار الجيش، وعقده الألوية لهم وعدم خروجه صلى الله عليه وسلم في بعض السرايا وتفويضهم صلاحيات القيادة، واستشارته لهم في الخطط العسكرية كما حصل في غزوة الخندق، وكذلك إشراكهم في اتخاذ بعض الأحكام الاجتهادية، والسياسات التدبيرية الداخلية وكذا الخارجية المتعلقة بالمعاهدات، وتعيينه بعض الصحابة للقيام بمهام جمع الزكاة والحسبة وغيرها من الأمور السياسية التدبيرية المهمة.

ومن مجالات الإشراك التي شملتها تربيته صلى الله عليه وسلم في أمور الدين استخلافه صلى الله عليه وسلم **في الإمامة** عند غيابه كاستخلافه ابن أم مكتوم على المدينة إماما للناس في غيبته وكذلك أبي بكر في مرضه.

ثانيا: التربية بالقدوة

التربية بالقدوة نقصد بها ذلك "النموذج البشري المتكامل الذي يقدم الأسلوب الواقعي للحياة في مجالاتها المختلفة السلوكية والانفعالية والعلمية والاجتماعية"[39]. **والقدوة في التربية**: "الشخص المربي الذي يدعو إلى أنواع الفضائل والكمالات السلوكية، والأفكار السليمة الصحيحة، وقد عمل بها واتصف بها من قبل"[40].

تكتسي القدوة في العملية التربوية أهميتها من حيث أن من طبيعة البشر وفطرتهم التي فطرهم الله عليها، أن يتأثر بالمحاكاة والقدوة، فيتأثر المتربي دائمًا بطبيعة المربي، ويحاكيه دائمًا.

ثم إن في القدوة إيصالاً سريعًا للمفاهيم التي يريد المربي إيصالها للمتربين؛ لأنه أوصلها في واقع تطبيقي إلى جانب الواقع النظري.

وإن قدوة المربي الحسنة لها تأثير على إقبال المتربين عليه، واستجابتهم وتأثرهم وانقيادهم له، وثقتهم به. إضافة إلى كون القدوة وسيلة تربوية حية تجسد الكلمات إلى أفعال والأقوال إلى أعمال.

وهذه الوسيلة شكلت محور تصرفاته صلى الله عليه وسلم التربوية، إذ يعتبر مثالاً حيًا لمنهجه المعجز، وقد كان صلى الله عليه وسلم الداعية والمربي الأول، والمثل الأعلى والقدوة الحسنة؛ إذ فيه يرجع الكمال في كل شيء، ومنه يعرف الكمال في كل شيء يقول تعالى: " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر"،[41] فكان التطبيق العملي للمنهج العقائدي الذي يدعو إليه . وهو منهج القرآن . لذلك لما سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خلقه قالت: كان خلقه القرآن.

وقد شملت قدوته صلى الله عليه وسلم جميع المجالات ومنها أنه كان:

- قدوة في العبادة، فالعبادة "ترسم للإنسان منهج حياته الظاهرة والباطنة، وتحدد سلوكه وعلاقاته؛ كما أنها وسيلة لتزكية النفس وطهارتها، بل هي من أعظم الأمور التي يتأثر بها المتربون، لأنها إذا صلحت عبادة المربي؛ صلحت باقي الأمور"[42]، فقد كان صلى الله عليه وسلم كما قالت عائشة رضي الله عنها يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم، وكان لا تشاء تراه من الليل نائمًا إلا رأيته، ولا تشاء تراه قائمًا إلا رأيته. وكان كثير الاستغفار والذكر وقراءة القرآن ومحبا لسماعه من غيره، وكان كالريح المرسلة من شدة عطائه. هذه الصفات التعبدية فيه صلى الله عليه وسلم طبعت في صحابته رضوان الله عليهم حب العبادة والتعبد لله تعالى.

- قدوة في خلقه، وهذا ما أخبر به الله تعالى في كتابه " **وإنك لعلى خلق عظيم** "[43]، وهذا ما لمسه الصحابة في واقعه صلى الله عليه وسلم فكانت أخلاقه بمثابة المحفز، والمنشط لهم لمحاولة الوصول إليها، وبذل الجهد في ذلك.

- قدوة في حبه لرسالته ودعوته وتحمله أعباءها وما يصيبه من أذى في سبيلها، ففي سيرته صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو دون كلل أو ملل يدعو الصغير والكبير، الشريف والوضيع، والغني والفقير، والحر والعبد، والقريب والبعيد، والفرد والقبيلة، يدعو في البيوت وفي الأسواق وفي المناسبات في الليل وفي النهار، فصحابته يرون هذا النموذج البشري يتحرك فيهم بهذا الحب وهاذه القوة انطبعوا بهذا الدين وبهذه الصفات حتى صار الدين أحب إليهم مما سواه من أموالهم وأهليهم وأنفسهم.

- قدوة في الحياة العامة، كان صلى الله عليه وسلم يشاركهم في سائر أمورهم الدنيوية، وهذا ما ولد عند الصحابة حب القائد والتمسك به، ومن ذلك مشاركتهم في الظروف الصعبة، فقد كان الصحابة إذا جاعوا في حالات الفاقة والفقر، كان صلى الله عليه وسلم يشد على بطنه بحجرين من شدة الجوع، ومن ذلك مشاركتهم في الأعمال وإن كانت شاقة كمشاركته صلى الله عليه وسلم في بناء المسجد وحفر الخندق يوم الأحزاب إلى غير ذلك من مظاهر القدوة في التصرفات النبوية.

لقد كان لها الجانب من تربيته صلى الله عليه وسلم الأثر الأكبر في تربية صحابته فكانوا أحرص الناس على الاقتداء واتباعه، ويمكن أن نستحضر هنا ما وقع بعد إقرار صلح الحديبية وامتناع المسلمين عن حلق رؤوسهم والتحلل من إحرامهم بعد أن أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك لعدم رضاهم بشروط الصلح يقول راوي الحادثة: "ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قضية الكتاب قال: (قوموا فانحروا)، فو الله ما قام منهم أحد حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا رسول الله، أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدْنَه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأي الناس ذلك قاموا فنحروا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا"[44]، والشاهد عندنا متابعتهم للنبي صلى الله عليه وسلم في فعله ففعله أبلغ من قوله في تلك اللحظة.

ثالثا: التربية بالحدث

إن المربي البارع لا يترك الأحداث تذهب سدى بغير عبرة وبغير توجيه، وإنما يستغلها لتربية النفوس وصقلها وتهذيبها[45]، والتربية بالحدث تعني أن يستثمر المربي الأحداث من حوله ليطبع أثرا في نفس المتربي ليوصل رسالة أو يستقي عبرة أو يغرس خلقا أو يؤكد على مبدأ.

إن الحدث أو الموقف يثير المشاعر ويحرك النفوس والعقول، فحين يستثمر هذا الموقف يقع التعليم موقعه المناسب، ويبقى الحدث وما صاحبه من توجيه وتعليم صورة منقوشة في الذاكرة، تستعصي على النسيان. لقد مارس النبي صلى الله عليه وسلم هذا الأسلوب في منهجه التربوي في مواطن كثيرة ومواقف متنوعة فقد يكون الحدث:

- ظاهرة كونية مجردة، لكنه صلى الله عليه وسلم يستثمره ليربطه بمعنى معين، فعن جرير بن عبد الله –رضي الله عنه– قال كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة يعني البدر فقال: " إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا" ثم قرأ {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب}[46]، فاستثمر النبي صلى الله عليه وسلم حدث اكتمال القمر كظاهرة محسوسة مشاهدة ليرسخ عقيدة ويحفز على عبادة، فأما العقيدة فهي أنهم سيرون ربهم في الجنة رؤيتهم للبدر، ثم حفزهم من خلال هذا المقام. أي دخول الجنة والتمتع بالنظر إلى وجهه تعالى على طريقة موصلة وهي المحافظة على صلاة الفجر وصلاة العصر. وهذه من أرقى الوسائل التربوية والتي تربي الذوق وترسخ المعنى.

- موقفا مثيرا للعاطفة وجياشا للمشاعر، فكما في حديث أنس رضي الله عنه: " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مع أصحابه يوماً وإذا بامرأة من السبي تبحث عن ولدها فلما وجدته ضمته فقال: صلى الله عليه وسلم أترون هذه طارحة ولدها في النار قالوا: لا، قال: والله لا يلقي حبيبه في النار"[47]، فها الحدث الذي يراه الصحابة بأعينهم حرك فيهم مشاعر الرحمة والضعف الإنساني أمام عاطفة الأم، فأكدَ صلى الله عليه وسلم أن رحمة الله بعباده هي أكبر وأشد من رحمة هذه الأم بوليدها.

- وقد يكون الحدث موقف حزن وخوف، فيستخدم فيه صلى الله عليه وسلم ما يناسبه من الوعظ، كما في وعظه صلى الله عليه وسلم أصحابه عند القبر، فعن البراء بن عازب قال: "خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه، فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا.. ثم ذكر الحديث الطويل في وصف عذاب القبر وفتنته[48]، فموقف الحزن والخوف يجعلان القلب أشد تأثرا فالنبي صلى الله عليه وسلم هنا يعظ منبها إلى أن مصير الخلق كلهم إلى زوال، ثم غارسا لعقيدة الحساب والجزاء وما يتقدمهما في البرزخ من سؤال وعذاب أو نعيم.

المطلب الثاني: الوسائل المؤسساتية

نقصد بالوسائل المؤسساتية في التربية النبوية، مختلف القنوات الاجتماعية التي استثمرها النبي صلى الله عليه وسلم في تربية أصحابه، وسأحصر الحديث هنا في ثلاث أهم ثلاث مؤسسات التي شكلت المحاضن التربوية الأصيلة للفرد المسلم.

أولا: الأسرة المحضن التربوي الأول للفرد:

تعتبر الأسرة الخلية المركزية في المجتمع، وهي التي تزوده بالأفراد، وتكتسي أهميتها من حيث وظائفها، حيث أنها تحفظ الجنس البشري عبر قناة مشروعة ومضبوطة، ثم هي تحقق الأمن والطمأنينة والاستقرار النفسي بالنسبة لأفراد المجتمع، ثم تضمن التكافل الاقتصادي بين أفرادها، وهي التي تساهم بشكل كبير في المحافظة على ثقافة المجتمع وهويته باعتبارها البيئة الطبيعية الأولى للفرد.

ومن الناحية التربوية تعتبر الأسرة أقدم المؤسسات التربوية داخل المجتمعات والتي ينشأ الطفل فيها وينمو جسديا وعقليا وثقافيا، ومن ثم عني النبي صلى الله عليه وسلم بالأسرة كوسيلة تربوية في تلقين مبادئ العقيدة والسلوك والأخلاق، وذلك من خلال:

أولا: سنه صلى الله عيه وسلم . انطلاقا من الوحي . لمجموعة من القواعد التي يتأسس عليها البيت المسلم، من مودة ورحمة، ومجموعة من الضوابط الشرعية المتعلقة بأحكام الأسرة ابتداء من اختيار الزوجة والزوج مرورا بالخطبة وآدابها والزواج وأحكامه وكذا قواعد التعامل داخل البيت، وذلك كله تهيئة للبنة الأولى التي ينشأ داخلها أفراد المجتمع.

ثانيا: تنبيهه للمسؤولية الواقعة على الوالدين في تربية أبنائهما، والحفاظ على دينهم وأجسامهم وعقولهم، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُو مَسؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُو مَسؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ "[49].

ورعاية الرجل والمرأة في البيت تتضمن معنى التربية. سواء كانت عقلية أو جسدية أو نفسية. وأشار صلى الله عليه وسلم إلى دور الأسرة في التنشئة الدينية بقوله: " :كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَو يُنَصِّرَانِهِ أَو يُمَجِّسَانِهِ[50]. وهذا الحديث تضمن إشارة صريحة أن العنصر الأكثر تأثيرا في الطفل هما الوالدين.

ثالثا: لم يكن استثمار النبي صلى الله عليه وسلم وسيلة تربوية مقتصرا على التوجيه فقط، بل كان صلى الله عليه وسلم النموذج العملي في تعامل الرجل داخل أسرته وفي تربية أعضائها سواء كانوا أبناء أو أحفادا أو أزواجا، بل حتى موالي وخدما.

فنجده صلى الله عليه وسلم يشير إلى هذا المعنى في قوله" خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي"[51]، وشهادة أهل بيته له فعن عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَادِمًا، وَلَا امْرَأَةً قَطُّ[52]"، وكان يخسف نعله ويرقع ثوبه ويخدم أهله، والشاهد عندنا من هذا كله هو أنه كان صلى الله عليه وسلم المربي والراعي داخل الأسرة، فمن مواقفه التربوية مع أسرته ما تعلق منها بأمر تبليغ الرسالة، فكان أول من دعا النبي صلى الله عليه وسلم زوجته خديجة رضي الله عنها وعلي بن أبي طالب . وكان عنده . وزيدا بن حارثة وكان مولاه، فدعا أهل بيته ثم عشيرته الأقربين، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ، يَا أُمَّ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ اشْتَرِيَا أَنْفُسَكُمَا مِنَ اللَّهِ لَا أَمْلِكُ لَكُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا سَلَانِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمَا"[53].

ومنها تعليمه لأفراد أسرته الآداب العامة، فعن عُمَرَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ، يَقُولُ: كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا غُلَامُ، سَمِّ اللَّهَ وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ"[54].

والمواقف في هذا الباب كثيرة، كلها تؤكد لنا استثمار الرسول صلى الله عليه وسلم للأسرة كوسيلة في تبليغ الدعوة وترسيخ قواعد سلوك المجتمع المسلم.

ثانيا: المسجد والأدوار التربوية

يطلق المسجد في اللغة لدلالة على موضع السجود، وفي الاصطلاح هو المكان المعد للصلوات، وهو أحبّ البقاع إلى الله تعالى، "فهو قلعة الإيمان وحصن الفضيلة، وهو بيت الأتقياء ومكان اجتماع المسلمين يومياً. وهو مركز مؤتمراتهم ومحل تشاورهم وتناصحهم، والمنتدى الذي فيه يتعارفون ويتآلفون وعلى الخير يتعاونون"[55].

والمسجد مؤسسة تربوية اجتماعية، حيث أنه كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مكاناً للعبادة والاعتكاف والتعليم والتوجيه، ومكاناً لتشاور المسلمين وتناصحهم فيما بينهم. و"كان فيه التقاضي، وكان مقراً للقيادة وعقد ألوية الجيوش المجاهدة في سبيل الله، وتطبيب المرضى، فضلاً على أنه كان مركزاً للتثقيف"[56]. كما كانت توثق به عقود الزواج، كذلك كان مكاناً لاستقبال الوفود والسفراء، إضافة إلى أنه كان يمثل داراً للإعلام، كما كان داراً للإغاثة والرعاية الاجتماعية.

ومن الناحية التربوية، فالمسجد وسيلة تربوية تستهدف تربية الفرد المسلم وسط الجماعة، أي باعتباره عنصرا متفاعلا مع محيطه الاجتماعي، وقد مارس النبي صلى الله عليه وسلم التربية بواسطة المسجد في المرحلة المدنية وما طبعها من اتساع في قاعدة المسلمين، فلم يعد بالإمكان متابعة المسلمين فردا فردا لكثرتهم، ومن ثم جاء الدور التربوي للمسجد في تأطير السلوك الاجتماعي العام. واتجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى "تشكيل الرأي العام الشعبي تشكيلا إسلاميا، من اجل صناعة عقلية جندية فاعلة، ومبادرة، ومطيعة"[57] فكان المسجد مؤسسة للتوجيه العام ويظهر ذلك جليا في خطبة الجمعة وغيرها من الخطب، فالخطاب التربوي لم يعد متوجها للفرد وإنما متوجها لعموم المسلمين، و يمكن أن نجمل أهم الأدوار التربوية التي مارسها النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد في:

أولا: التربية على الأخوة الإسلامية والمساواة الإنسانية،

ثانيا: استثمار المسجد لمعالجة بعض الاختلالات وتصحيح بعض السلوكيات التعبدية،

ثالثا: اعتبار المسجد مؤسسة تعليمية، وغالب فعله صلى الله عليه وسلم في المسجد كان من قبيل التعليم سواء كان ذلك مبادرة منه أو إجابة عن فتوى مستفتي أو سؤال سائل،

ونشير أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصر دور المسجد التربوي على الرجال فقط، وإنما جعل للنساء فيه نصيبا، فنبه على عدم منع النساء من إتيان المسجد، فعنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: "كَانَتِ امْرَأَةٌ لِعُمَرَ تَشْهَدُ صَلَاةَ الصُّبْحِ وَالْعِشَاءِ فِي الْجَمَاعَةِ فِي الْمَسْجِدِ، فَقِيلَ لَهَا: لِمَ تَخْرُجِينَ وَقَدْ تَعْلَمِينَ أَنَّ عُمَرَ يَكْرَهُ ذَلِكَ وَيَغَارُ، قَالَتْ: وَمَا يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْهَانِي، قَالَ: يَمْنَعُهُ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ"[58]. ومن ثم اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم للنساء يوما يسألنه ويعلمهن فيه باعتبارهن مكونا هاما في المجتمع.

ثالثا: مجالس الذكر الخاصة

ونقصد بمجالس الذكر الحلق التربوية التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعقدها لأصحابه ليلقنهم مبادئ الدين ويتدارس معهم آيات الكتاب وحال الدعوة والمدعوين الجدد.

وقولنا الخاصة إشارة إلى أنها لم تكن تضم عددا كبيرا من الأفراد كما هو الشأن بالنسبة لمجالس المسجد المفتوحة من جهة، وكون الأفراد المستهدفين من العملية التربوية فيها ليسوا من عامة المسلمين من جهة أخرى.

وتتبعنا لسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم يبين لنا أنه انتهج هذه الوسيلة التربوية في بدايات الدعوة خاصة في المرحلة السرية منها، ونقصد بالضبط ما اشتهر بالمجلس الأرقمي[59]، وذلك نسبة للمكان الذي كانت تنعقد فيه، وهو دار الأرقم بن أبي الأرقم.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يهدف من خلال هذا المجلس الخاص تربية الدعامات الأصيلة التي ستحمل الدعوة أو ما يمكن أن نصطلح عليه بالقيادات الدعوية التي ستتحمل عبأ الدعوة والتبليغ، فكان تتبعه صلى الله عليه وسلم لهذه الفئة وتكوينه لها عن قرب. وهنا الخطاب التربوي يكون موجها للفرد بعينه أي ما يصطلح عليه بتشكيل السلوك الفردي، عكس المسجد الذي قلنا أن الخطاب فيه يهدف إلى تأطير السلوك الاجتماعي. واعتماده صلى الله عليه وسلم لهذه الوسيلة أمر طبيعي وواقعي، فكل دعوة كانت في مرحلة التأسيس، لابد لها من السعي إلى تربية الخلايا الأولى، التي سيتولى أفرادها مهمة الإنتاج، والاستيعاب فيما بعد، فيكون التأسيس التربوي الأول بطبعه تأسيسا قياديا بالدرجة الأولى[60].

إن رجوعنا للسيرة واستقراءنا لمحطات منها، يجعلنا نقف أمام حقيقة واضحة وهي أن كل الذين تربوا على يد النبي صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم ما علم من أحدهم ارتداد عن الدين أو نفاق فيه أو انتكاسة في الخلق، بل كانوا رجال تبليغ الدعوة، ورجال المواقف الصعبة الذين يثبتون إذا شك الناس، ويتقدمون إذا تخلف الناس، ويفدون بالمال والنفس والأهل إذا بخل الناس. وفي هذا دليل على نجاح المنهج التربوي النبوي في تحقيق غايته وأهدافه، وإخراج الفرد المسلم والأمة المسلمة إلى واقع الوجود، وإلى قيادة الإنسانية، مستنيرا بتوجيه الله تعالى ليكون نعم المربي ونعم المعلم.

خاتمة

إن المنهاج التربوي النبوي، يعتبر منهاجا متميزا عن غيره من المناهج التربوية، من حيث خصائصه وسعة وسائله وتنوعها، مما يستلزم المزيد من تعميق البحث حوله، وإيلاء الدراسات التربوية المتخصصة في عالمنا الإسلامي اهتماما أكبر، حتى يتسنى لنا إخراج منظومة تربوية مؤصلة من كتاب الله تعالى، ومستنبطة من التجربة التاريخية الفريدة للنبي صلى الله عليه وسلم في مجال التربية، في ظل النظريات التربوية الحديثة الغربية، والتي تفتقد إلى بوصلة التوجيه الرباني في مناهجها وأهدافها ووسائلها، فتنطبع بصفة القصور، مما يجعلها بعيدة عن التصور الإسلامي الذي يجعل من التربية عملية شاملة في أهدافها ووسائلها، تربي الإنسان على ما ينصلح به أمر دينه ودنياه وآخرته، وهي تخاطبه في كينونته الذاتية، ثم باعتباره جزءا من المجتمع، وتضبط علاقاته بالكون كله، مما يحقق التوازن للإنسان في مختلف مجالات عيشه. ثم إن منهاج التربية النبوية منهاج يخاطب الإنسان كما هو، في حدود طاقته واستعداداته ويراعي نفسياته وانفعالاته، ويهدف للوصول به إلى أرقى درجات إنسانيته.

وحاجتنا أشد ما تكون اليوم، لاستلهام التجربة النبوية في مجال التربية لإخراج الإنسان الصالح في ذاته، والمصلح لمجتمعه ومحيطه، بما يضمن لنا إخراج المجتمع المسلم والأمة المسلمة من حيز التاريخ الماضي، إلى حاضر الوجود ومستقبل الشهود.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

[1] الفيروز ابادي القاموس المحيط مادة (ن ه ج).

[2] ابن فارس مقاييس اللغة.

[3] سورة المائدة، الآية 48.

[4] فريد الأنصاري أبجديات البحث في العلوم الشرعية دار السلام القاهرة طبعة 2010 ص 49.

[5] ماجد عرسان الكيلاني مناهج التربية الإسلامية والعاملين فيها نقلا عن كتاب زين روبير principles and foundation مؤسسة الريان بيروت طبعة 1998ص74.

[6] د ماجد عرسان الكيلاني مناهج التربية الإسلامية ص 75.

[7] سورة الروم الآية 39.

[8] سورة البقرة الآية 276.

[9] سورة الشعراء الآية 18.

[10] سورة الإسراء الآية 24.

[11] معجم روبير Robert

[12] منير مورسي أصول التربية الثقافية والفلسفية، عالم الكتب، القاهرة. 1977 ص 26.

[13] نفس المرجع السابق.

[14] ماجد الكيلاني مناهج التربية الإسلامية والمربون العاملون فيها ص 77.

[15] فريد الأنصاري التوحيد والوساطة في التربية الدعوية سلسلة كتاب الأمة عدد 47 جمادى الأولى 1416 جزء الأول ص 35.

[16] القول بأن المنهج نسق إشارة إلى المضمون الفلسفي أي أنه منظومة معرفية صادرة عن تصور فلسفي فمنهج فلان في مسألة ما ترجمة لتصوره ومبادئه الكلية في النظر إلى الأشياء والنسق هنا هو الوحي باعتباره ضابطا للتصرفات النبوية.

[17] ماجد الكيلاني أهداف التربية الإسلامية مؤسسة الريان بيروت طبعة 1998 ص 17.

[18] حنان بنت عطية الطوري الجهني، الدور التربوي للوالدين في التنشئة رسالة ماجستر مقدمة لجامعة آل سعود بالرياض كلية التربية 2001.

[19] أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم 2516 وقال حديث حسن صحيح.

[20] سورة الصافات الآية 56.

[21] رواه البخاري في الصحيح كتاب الآذان أبواب صلاة الجماعة والإمامة رقم 626.

[22] نفسه رقم 612.

[23] عبد الغني عبود التربية الإسلامية وتحديات العصر ص 459.

[24] عبد الجواد سيد بكر فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، طبعة 1995 ص 246.

[25] رواه أحمد في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه رقم 8593 والحديث حسن.

[26] رواه البخاري في الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه كتاب الجهاد والسير باب ما يتعوذ منه رقم الحديث 2625.

[27] بتصرف سيد قطب خصائص التصور الإسلامي ومقوماته دار الشروق القاهرة طبعة 2002ص 179.

[28] نفسه ص 169.

[29] البخاري في الصحيح كتاب النكاح بَاب التَّرْغِيبِ فِي النِّكَاحِ رقم 4702.

[30] سيد قطب هذا الدين دار الشروق القاهرة طبعة 1995 ص 38.

[31] أحمد في المسند عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه مسند المكثرين رقم 13543.

[32] الترمذي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه رقم: 2559 حديث حسن صحيح.

[33] يوسف القرضاوي مدخل لمعرفة الإسلام مؤسسة الرسالة القاهرة طبعة 2002 ص 25.

[34] ماجد الكيلاني مناهج التربية الإسلامية والمربون العاملون فيها ص 138.

[35] ابن تيمية مجموع الفتاوى، كتاب السلوك، الجزء 10، ص 302.

[36] ابن هشام السيرة النبوية الجزء الأول ص 286.

[37] علي الصلابي أبوبكر الصديق شخصيته وعصره ص 58.

[38] والخمسة هم عثمان بن عفان والزبير بن العوام طلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص.

39 عبد الرحمن صالح مدخل إلى التربية نسخة الكترونية، ص 53.

40 زياد العاني أساليب الدعوة والتربية في السنة، نسخة إلكترونية. ص25، بتصرف.

[41] سورة الأحزاب الآية 21.

[42] سعد بن محمد الوادعي التربية بالقدوة التربية الصامتة دار ابن حزم الجزائر، طبعة 1998ص 28.

[43] سورة القلم الآية 4.

[44] البخاري في الصحيح عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه كتاب الشروط باب الشروط في جهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط رقم 2543.

[45] محمد قطب منهج التربية النبوية الجزء الأول دار الشروق بيروت طبعة 1997 ص 207.

[46] البخاري في الصحيح كتاب التوحيد باب قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة على ربها ناظرة رقم 6909.

[47] أحمد في المسند مسند المكثرين مسند أنس بن مالك رضي الله عنه رقم 11799.

[48] أبوداوود في السنن باب في المسألة من القبر وعذاب القبر رقم 4127.

[49] البخاري في صحيحه كتاب الأحكام باب قوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم الرسول رقم 6634.

[50] نفسه عن أبي هريرة رضي الله عنه كتاب الجنائز باب ما قيل في أولاد المشركين رقم 1303.

[51] جامع الترمذي كتاب الدعوات أبواب المناقب باب فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم رقم 3860.

[52] أبوداوود في السنن كتاب الآداب باب في العفو التجاوز في الأمر رقم 4157.

[53] البخاري في الصحيح كتاب المناقب باب من انتسب إلى آبائه في الإسلام رقم 3287.

[54] نفسه كتاب الأطعمة باب التسمية على الطعام والأكل باليمين رقم 4984.

[55] ممدوح الصدفي، الدور التربوي والاجتماعي للمسجد منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم ص 2000.

[56] نفس المرجع السابق.

[57] فريد الأنصاري التوحيد والوساطة في التربية الدعوية 93.

[58] البخاري في الصحيح كتاب الجمعة باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل رقم 855.

[59] أشار إلى ذلك في كتابه التوحيد والوساطة في التربية الدعوية.

[60] فريد الأنصاري التوحيد والوساطة ص 82.